حسن فتح الباب

وجه من وجوه ميدان التحرير :الشيوخ والشباب

د. يوسف نوفل

لقاء الأجيال هو البديل الواقعي، والأكثر صدقا من مقولة مبالغ فيها هي(صراع الأجيال)،لاسيما وقت الشدائد والأزمات، حيث تلتحم القوى،وتتآزر الملكات .والفضل في ذلك راجع إلى عبقرية المكان ، وعبقه ، وسحره ؛ ميدان التحرير ،حيث صوّر الشاعر الكبير حسن فتح الباب لقاء التاريخ في لحظة فارقة بين زمانين، وعهدين،ذابتْ فيها فوارق السن والطبقة واللون والأيديولوجيا،وامتزج التاريخ بالواقع في "زمكانية" القول الشعري المعبّر عن اللحظة الفارقة ،في خطاب بين طرفين كانا ،قبل الامتزاج ،من جيلين:أحدهما جيل الشيوخ، ويمثلهم ،كغيره،مبدع القول الشعري،والثاني جيل الشباب،ويمثلهم ثوّار الفجر الصادق في الخامس والعشرين من يناير، وما إنْ بزغ الفجر حتى التحمتْ الأجيال ،وتشابكت الأيدي في الميدان الذي يسمّيه الشاعر: ميدانا ، ومحطة، وساحة موصوفة بصفة التحرير.

أمّا جيل الشيوخ فليس محصورا ،أوماثلا في أشخاص الشيوخ بقدر ما هو ممثّل لصوت الشعب كله،ذلك الذي لم يتمكّنْ من المشاركة الفعلية في الثورة جنبا إلى جنب ،وصدرا إلى صدر .وفي ديوان (وجوه في الميدان) المكتوب بين 23 ، و25من يناير 2011 حتى 21من مارس من شعر حسن فتح الباب نجد جيل الشيوخ يستقلون قطار العمْر:

. وفجأة رأيت وجهه الحبيب /أعرفهْ..يعْرفني/صافحْته .... ابتسمْ/سألْته عن سرّ غيبتهْ/ويالها منْ غيْبة /أومأ لي ..أدْركْت أنه / أقلّه ضحى قطار آخر إلى محطة

/ حمراء محتشدةْ/بالبرق والرعود والورود/محطة محتشدةْ/بالبرق والرعود والورودْ/محطة التحريرْ/هناك حيث كان في انتظاره الوطنْ.

وبرغم اعتراف الشيخ الهرم بشيخوخته فما إنْ وصلتْه رسالة الشباب حتى قال :

لمْ تمضْ غير ساعة/حتى وجدْتني معهْ/كأنني قد عاد لي الشبابْ /هناك في "محطة التحريرْ" /مع الشباب الثائرينْ/وكان لي بشير الانتصارْ.

مرحبا بعودة الشباب :" كأنني قد عاد لي الشبابْ" في " ثورة الشباب" ، التي كمنتْ روعته في المفاجأة :

"كبر الصغار فجاءة/هبّواجموعا كالمطرْ/أمّا الكبارْ/نحن الشيوخْ/فما عرفْنا كيف ضمّوا شملهمْ....." ،حيث الكل أضحى واحدا (الكل في واحد).

مضى الشاعرمتحدثا باسم الأجيال السابقة في قصيدة (لكنت في الميدان):لوعاد بي الزمنْ/لكنت في الميدانْ.... لو مدّ في عمري الزمان واعتليتْ/كرسيّ الاعترافْ سأعترفْ/بأنني الفجر الكذبْ.

وهو ما تحمله قصيدة(اعتراف)، موحّدا بين الأجيال في اسم واحد هو "المصريّ"، مستعيدا النص الموروث لسيد درويش :"أنا المصري كريم العنصرين".

وتفْلح ريشة الشيخ الهرم في رسم صورة البطل ، بصفاته وملامحه : الفتى . الفارس المحرّر النبيل . أضحى يؤمّ الثائرين . الشباب الثائرون . ابن مصر. يحب صوت شعبه العظيم . خالد سعيد ضحية التعذيب ، ياخالدا مخلّدا إلى الأبدْ . كبر الصغار فجاءة . الشهيد ، وهو اللقب الذي يستقلّ بالقصيدة منذ عنوانها ، ومعه أبطال آخرون توثّقتْ عراهم به كأمه ، وحبيبته،وزوجه،أو عروسه...

وقد آثرالقول الشعري قالب السرد والحكْي، وهوالطريق المألوف المحبوب للإنسان منذ طفولته حتى شيخوخته،ولدى الشعوب ،بأسرها،منذ بدائيتهاالأولى، حتى أوج تحضرها، حيث سحر الحكاية والتخييل،وبهجة السرد ،وفتنته ، تلك التي نراها منذ القصيدة الأولى المسافرة عبر المحطات حتى نصل إلى محطة

التحرير ،والتي ذكرْنا خاتمتها التي تنبئنا بلقاء الجيلين في محطة غير المحطة التي كانت مقصودة من قبْل .

ويلتحم الحلم مع الحكْي : " كأنني حلمْت أنني رأيته/هناك في محطة التحريْ"، موظّفا فعل القصّ (كان . كنت . كانتْ . كانوا)، إلى جانب أفعال السرد الأخرى ، وكأنه الراوي الشعبي الذي يمضي مع ربابته في تخيلات السير الشعبية ببطولاتها ، وأمجادها ، وأهوالها،وأحداثها . بل خوارقها، ومع رسم السيرة الشعبية، لملامح بطلها الذي يتجاوز الواقع في بعض الأحيان، حتى ليطمح إلى الفانتازيا.

ويحرص السرد الشعري على خيط التسلسل بأفعال السرد المتتابعة ، وما فيها من حدث،وفعل،وحركة،وصراع،وحبْكة : سمعْت صوتا حانيا وجذْتني في المعترك . وجذْتني مطوّقا . وفجأة رأيتني وجها لوجه. وما فيها من حوار : رفعْت ساعديّ قلت لهْ :/ أنا أكنّ الحب لكْ / لم يصْغ لي ..وقالْ:/لن أخذلكْ/لن أقتلك..فقلت له:/ياصاحبي ما أشجعكْ..

ويوظف القصّ التراثي للبناء على الحكاية في تناص شعري تراثي قديم منذ فجر الإنسانية ،أووسيط : سلالة من قوم "نوح"/يؤمّهم جلادْ/كان اسمه "مسيْلمةْ" ،وزوجه "سجاحْ"/كان اسمه "فرعونْ"مصرْ ، ساردا الإشارات التاريخية :

المماليك،والقراصنة،والتتار ، مشيرا إلى حتمية التاريخ في ... (القصاص) ؛أمل الثوار ،والأرامل،والثكالى ،والأهل أجمعين .وهو ما يعود إليه في قصيدته(مقبرة الغزاة والطغاة)،حيث الهكسوس ،وأحمس،ليكون الثوار"مليون أحمس"، أو في تناص يجسد المعجزة منذ شقت عصا موسى البحر بالعصا،ومنذ عصا سليمان ، ليصل إلى عصا طاغية مصر الحديثة التي كانت سيفا على رقاب الشعب .أو في تناص ديني ،حيث :المسيح،ومريم ،وصولا إلى الوحدة الوطنية : " وكنت في "القداس" أرفع الشعار :يحيا الصليب والهلالْ " ،موظّفا المونولوج الداخلي،أو النجوى الداخلية : أنا صبيّ حالم ....إلخ.

بل يصرّح بلفظ القص:"وهكذا قصّ علي مسمعي... حكايتهْ" ، بتحديد واضح صريح للمكان :

ساحة التحرير . محطة التحرير. الميدان، بالتعريف لا بالإضافة ،وبخاصة في قصيدة(هكذا تكلم الميدان) ، موظّفا طاقات التكرير، حين كرركلمة:"أنا الميدان". "أنا ساحة التحرير" في القصيدة الواحدة.ومع المكان تتحدد ملامح الزمان في السرد دليلا على عدم انفصال الزمان عن المكان في الواقع والتاريخ معا .

وهكذا قام السرد الشعري على قالب أليف مألوف ، حبيب محبوب ،وهو الحكاية ،تلك التي تقوم عليها قصيدة الديوان الأخيرة (نداء):

" ذات مساء من ليلات شتائي/وأنا أبحث عن أنفاس حرّى/ تدفئني..تطفئ جذوته/وهي تشل عظامي /قلت لنفسي:أحيي ذكرى/ لربيع صبايْ/فلعلي أقطف منه زهرةْ/يهديني طيفا نورانيا/في لحظةْ/حتى اختطفتْ عيني فجأةْ/كوْمة أوراق صفراءْ/كانت مطويّةْ....

وتمضي القصة القصيدة،أو القصيدة القصة مع الخلجات والخواطر ،والدفقات،والمونولوج حتى يبلغ الحدث ذروته، في لحظة التنوير : وانبثقتْ فجأةْ/أنوار ساطعة/تطرق نافذتي/تقتحم العربات السوداءْ/تهتف ها قد بزغ الفجرْ /لا حلم ولا طيف.بل أيد....أقدام واعدة/دقّتْ بابي ،الآن عرفْت/أن لقاء حبيبينْ/رهن بطلوع الشمس بأيدينا/فيكون خلاص/من ظلمات الشبح الغاشمْ/ويقوم ملايين الثوار الأحرار /ينادونْ/ كن فيكونْ.